العصر الحجري القديم المتأخر في بلاد المغرب :

يواجه الباحثون مشكلة في تحديد الآثار التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ومن المرجح أن بعض المواقع التي تعود إلى هذا العصر قد تكون مواقع للحضارة العاترية، ولكن بقايا أخرى وجدت بها نصال (شفرات) ونصيليات وأدوات هندسية صغيرة الحجم متوضعة بشكل متأخر عن العصر الحجري القديم الأعلى، لذلك فهي تنتمي إلى العصر الحجري القديم المتأخر، وهذه المواقع في شمال إفريقيا تمثل كل من الحضارة الايبرومغربية والقفصية، فقد ظهرت الحضارة الايبرومغربية بين 23 ألف و9 آلاف قبل الميلاد ثم الحضارة القفصية التي أرخت بين 7000 و 4500 قبل الميلاد .

الحضارة الايبرومغربية :

وهي الحضارة التي عرفت خطأ بهذا الاسم لاعتقاد الباحثين بوجود تشابه بينها وبين حضارات شبه جزيرة إيبيريا، وقد عرفت بأسماء أخرى مثل "المويلحية" نسبة إلى موقع المويلح في الغرب الجزائري وعرفت أيضا بالوهرانية، و تتميز هذه الحضارة بأدواتها الهندسية التي تطورت فيما بعد في القفصية، وهي حضارة ساحلية انتشرت في شمال أفريقيا من المغرب غرباً إلى ليبيا شرقاً لكنها امتدت في بعض المناطق إلى أعتاب الصحراء فقد وجدت في الهامل قرب بوسعادة، ويعد الباحث بول بلاري Pallary p هو أول من سماها بهذا الاسم، ثم أطلق الباحث الفرنسي غوفري سنة 1932 عليها اسم الحضارة الوهرانية، غير أن هذه التسمية لم تصمد في الأوساط العلمية .

تتميز هذه الحضارة بأن أدواتها صغيرة الحجم حيث يتراوح حجمها بين3 و7 سم، وتتضمن النصال بصفة خاصة وهي تتخذ عدة أشكال منها ماهو مشذب القاعدة أو مدبب، ويوجد أيضا المكاشط والمسننات، أدواتها تتكون من حجارة الكوارتز والحجارة البركانية والصوان، كما أن أدواتها غالبا ما تتخذ أشكالا مستطيلة أو مثلثية، كما تميزت بكثرة النصال الصغيرة ، وكثرة استخدام العظام.

وقد قام الباحثون بتقسيم الحضارة الايبرومغربية إلى ثلاثة مراحل، تميزت القديمة منها بندرة أدواتها ذات الأشكال الهندسية، أما المرحلة الوسطى فقد تميزت بأشكالها الهندسية وبوجود صناعة عظمية، والمرحلة المتطورة التي أصبحت أدواتها دقيقة أكثر مع كثرة النصال المضروبة الظهر، واستمرار استخدام العظام.

- الحضارة القفصية :

سميت هذه الحضارة بهذا الاسم نسبة إلى موقعها النموذجي قرب قفصة والذي قام بدراسته دي مورجان سنة 1909، وقد سماها "بول بلاري" باسم "الجيتولية" ، وهي حضارة داخلية على عكس الايبيرومغربية تتركز أثارها قرب السبخات والأودية ، توافرت العديد من المواقع لهذه الحضارة في تونس والجزائر منها موقع المقطع قرب قفصة في تونس وموقع عين الذكارة قرب تبسة وموقع "كليموناطة" في تيارت، والمواقع القفصية عادة تكون قرب مصادر الماء كالبحيرات والأنهار وفي الهواء الطلق أو في الممرات الجبلية، أو في قمم مشرفة على السهول.

وتشمل أدواتها النصال والشفرات وذات الزاوية والأزاميل والمكاشط ، ومعظم أدواتها ذات زوايا حادة الشفرات المطروقة على الظهر والشظايا والمحتات والمخارز وكثرة الأشكال الهندسية بالإضافة إلى الصناعة العظمية، وقد شهدت هذه الحضارة استخداما واسعا لبيض النعام حيث يثقب ويستخدم لأغراض مختلفة كما يتم النقش على بيض النعام، والنقوش على القواقع هي من بين المظاهر الفنية لهذه الحضارة أيضا أما الفخار فهو نادر جدا، وقد امتدت هذه الحضارة إلى الصحراء فقد وجدت مواقع عديدة لها في المناطق الصحراوية .

1 - مميزات الحضارة القفصية :

تميزت الحضارة القفصية بمظاهر فنية تمثلت في نقوش لحيوانات مثلت على بيض النعام وعلى الصخور والقواقع، كما تضمنت رموز ذات طابع سحري، ويبدو أن حياتهم كانت مرتبطة بالصيد، وقد مثلت بعض الحيوانات دورا كبيرا في الجانب الديني ومنها الأبقار والغزال والنعامة، كما عرف القفصيون عادات غريبة تمثلت في

قلع الضرس[1] وتشويه الجثة كما كانوا يدهنون الجثة بالمغرة الحمراء ويضعون جزء من المغرة قرب رأس الميت وهو ما يدل على إيمانهم بالحياة الأخرى، ويبدو أن هذه العادة كانت موجودة لدى العاتريون أيضا.

وتميزت أيضا بطقوس جنائزية فريدة من نوعها فإلى جانب تشويه الضرس كان هناك وضعيات مختلفة للدفن منها الوضعية الجانية المتقلصة والتي تدعى الوضعية الجنينية، إلى جانب طقوس مدفنية أخرى فقد وجدت جثث بدون رأس في موقع رمادية فايد السوار2 بأم البواقي الذي يعود للقفصية العليا 7800-5500 قبل الحاضر، كما وجدت جمجمة في مدفنة الثانية أحدثت عليها تعديلات مما يدل على نوع من الطقوس الدينية وكذلك قلع ضرس الفك العلوي كما تم إزالة العظم القظالي وقاعدة الجمجمة كما تم نشر وصقل جزء من الجمجمة، وهذه العمليات التشويهية المعقدة وجدت في أماكن قفصية أخرى منها: رمادية مشتى العربي التي تقع على بعد 90 كلم شمال غرب فايد سوار، ورمادية المجار Medjez II التي تقع على بعد 180 كلم شمال غرب فايد سوار، وكذلك في موقع كلومينا‌طة بتيارت.

كما كانت الجثث تطوى أو تحزم مستلقية على الظهر أو في وضعية جانبية، وتكون الأعضاء مطوية بشدة، كما كان يتم التعرية من اللحم وأحيانا كانت عظام مختلفة متناثرة عشوائيا فوق الجثة مما يدل على أنه يتم دفن أكثر من شخص في القبر الوحد، وكان القفصيون يفككون عظام موتاهم فيضعون الأيادي على الصدر، أما طلاء الجثث بالمغرة فقد كان ممارسا لديهم، غير أن أبرز ما نلاحظه هو تشويه أو اقتلاع الضرس خاصة القواطع بطريقة مختلفة عن طريقة الايبرومغربون وذلك لان قلع الضرس إنما يخص الأنثى فقط والأمر يتعلق بالفك السفلي فقط أما الايبيرومغربين فقد كانوا يقومون بتشويه قواطع الفك السفلي مما يدل على نوع من المعتقدات الدينية.

وقد استطاع الباحثون تصنيف القفصية إلى عدة أقسام هي: العليا، النموذجية ، التبسية، السطايفية، الوسطى، الجنوبية، وبالنسبة للإطار الزمني للقفصية أكد الباحثون

---

[1] مارس الايبرومغربيون أولا قلع أضراس الفك السفلي والعلوي للناس في سن البلوغ ، أما القفصيون فقد كانوا يقلعون أضراس الفك السفلي فقط ، والمعروف أنه لا تزال شعوب إفريقية تفعل ذلك اليوم .

أن المرحلة القديمة من القفصية العليا تعود إلى ما يقارب الألف السابعة قبل الميلاد وتنتشر في الجنوب في عين الناقة بالأغواط و أولاد جلال ولا تصل إلى تيارت، وتتميز بصناعاتها الهندسية القزمية من خلال دراسة أكثر من 80 عينة أظهرت النتائج أن القفصية العليا كانت بين 7000 و 4500 ق.م .

أما القفصية النموذجية فهي متأخرة عن القفصية العليا، بينما تعود القفصية التبسية في موقع المقطع إلى حوالي 6850 ق.م، وفي "عين دوكارة" إلى 6950 ق.م، والقفصية السطايفية تعود في موقع المجاز 2 وموقع مشتى العربي إلى ما بين 6910 و 6600 ق.م أما القفصية الوسطى المنتشرة في "بونوارة" و"كدية كيفان اللحظة" فتعود إلى 6100 ق.م ، بينما القفصية الجنوبية في عين ناقة بالأغواط فهي الأقدم وتعود إلى حوالي 7650 ق.م.

وعلى العموم فإن القفصية لم تعمر إلا لمدة قصيرة نسبياً تتراوح ما بين منتصف الألف السابع والألف الرابع قبل الميلاد ، فقد أرخ موقع عين الناقة قرب الأغواط ب 7350 ق.م بينما أرخ موقع كليموناطة ب 4390 قبل الميلاد، ورغم عمرها القصير مقارنة بالحضارة الايبرومغربية إلا أنها امتدت إلى العصر الحجري الحديث، فقد أطلق الباحث كامبس على ثقافات العصر الحجري الحديث في المناطق الداخلية وفي الصحراء الشمالية اسم ثقافات العصر الحجري الحديث ذو التقاليد القفصية نظرا لوجود صناعة مشابهة ومتزامنة مع الصناعة القفصية العليا في المواقع الصحراوية.

ويعتقد الكثير من الباحثين ومنهم هوجو h G Hugot أن القفصيون مسؤولون عن الفن الصخري في الأطلس الصحراوي وهو ما يقره هنري لوت بالنسبة لجانب من الفن في الطاسيلي أيضا، بينما يعارض ليونال بالوLionel Balout هذا الطرح، غير أن بعض الباحثين مثل "مليكة حشيد" يعتقدون أن القفصيون بالفعل يمثلون جانب من الفن الصخري للأطلس الصحراوي والطاسيلي، والجدير بالذكر أن بعض مواقع هذه الحضارة وجدت قرب مواقع للفن الصخري خاصة في الأطلس الصحراوي مما يدل على ارتباط واضح بين القفصيين والفن الصخري.